بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:{كتب عليكم القتال وهو كُره لكم وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة :216] آية لها أثرٌ بالغ في حياة المؤمن إذا وعاها، واهتدى بهديها، فهذه الآية لها صلة بأحد أركان الإيمان: وهو الإيمان بالقضاء والقدر. وكررت هذه الآية في سياق وسورة أُخرى: {فَإِن كَرِهتُمُوهُنَّ فعسى أَن تَكرَهُوا شَيئاً وَيَجعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيرا كَثِيرا}[النساء: 19]

قد يقع للإنسان شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه فيحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيرًا على الإنسان من حيث لا يدري، والعكس صحيح فكم من إنسان سعى في شيءٍ ظاهره خيرٌ، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

وإذا تأملنا الآيتين الكريمتين ، وجدنا الآية الأولى تتحدث عن عبادة من العبادات وعن ألم بدني وجسميٍّ قد يلحق المجاهدين في سبيل الله، وإذا تأملت الآية الثانية وجدتها تتحدث عن علاقات دنيوية فهي تتحدث عن ألم نفسي يلحق أحد الزوجين بسب فراقه لزوجه!

فالآيتان تناولت أحوالًا دينية ودنيوية، وبدنية ونفسية ،وهي أحوال لا يكاد ينفك عنها أحد في هذه الحياة، ولو قلّبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ والواقع؛ لوجدنا من ذلك عبرًا وشواهدَ كثيرة، لعلنا نُذَكِّر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوةً لكل محزون ومهموم:

1 –قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر!

فما قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر، لمن فهم رسائل الله إلا تجلياً واضحاً لمعنى تدبير الرب سبحانه وتطبيقا عملياً لقوله {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}وقوله: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[يوسف/ 21]، فظاهر القصة الشر المحض؛ فالإلقاء في البحر معناه الهلاك المتحقق، ولولا أن الله ربط على قلبها لما ألقته، فلم تكن تعلم ماذا وراء ذلك الإلقاء من الخير للأمة في زمنها، ألتقطه آل فرعون الذين لو وجدوه قتلوه، فألقى الله محبة عليه ، فكل من رآه أحبه وتعلق قلبه به، كما قال تعالى: {وَأَلْقَيْتُ

عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِ}[طه/ 39]، فعاش وتربى في قصر فرعون الذي أراد قتله، حتى غير الله به البلاد والعباد، وصدق ربنا: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة:216].

2-وتأمل في قصة يوسف عليه السلام:

تجد أن هذه الآية منطبقةٌ تمام الانطباق على ما جرى ليوسف وأبيه يعقوب -عليهما الصلاة والسلام.-فقد قدر الله على يوسف الإلقاء في الجب وأن يباع كالعبد ويسجن، ثم يرى الملك تلك الرؤيا التي أخرجت يوسف، وأنقذ الله الناس ببركة يوسف، وكيف رد الله والدي يوسف له وإخوانه، مقرين بفضله ومكانته، وصدق الله {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة:216].

3-وتأملوا في قصة الغلام الذي قتله الخضر: بأمر الله تعالى؛ فإنه علل قتله بقوله: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}[الكهف:80-81].

4-ولما مات زوج أم سلمة أبو سلمة رضي الله عنهما، تقول أم سلمة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها؛ إلا أخلف الله له خيرا منها. قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم!))

5-وانظر للصحابة في صلح الحديبية كيف عارضوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا يرون الصواب معهم، حتى تبين لهم بعد ذلك أن الخير كل الخير فيما اختاره الله لهم، قال سهل بن حنيف رضي الله عنه:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَيْهِ لَرَدَدْتُهُ))، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: بَلَى. فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ))

*ليس هناك شيء عند الله اسمه صدفة يحدث عشوائيا، أو بدون ترتيب قال تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر}[القمر/ 49] فقد يجعل الله تعالى في الشر خيرا كامنا. والخلاصة:

أ- أن على المرء أن يسعى إلى الخير جاهداً أخذا بالأسباب وليس عليه إدراك المقاصد، فإذا وقع شيءٌ على خلاف ما يحب، فليتذكر هذه الآية المباركة.

ب- من خلال هذه الآية يتبين للمرء أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وأن الأمر بيد الله؛ فكان لزاما على العبد أن يتعلق بربه، ولا يعتمد على نفسه الضعيفة التي لا تعلم شيئا.

ج- من ألطاف الله تعالى أنه لم يجعل حياة الناس وسعادتهم مرتبطة ارتباطًا تامًا إلا به سبحانه.

د- الرضا بالله وعن الله ومعناه يجمع أمرين: الرضا بقضاء الله وقدره، والرضا بشرعه وأمره، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النبي صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)).

وقِيلَ لِيَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ رحمه الله: مَتَى يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا؟ فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي قَبِلْتُ. وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ. وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبَدْتُ. وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ.

هـ-التفويض إلى الله في جميع الأمور كما قال العبد الصالح :{وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }[غافر: 44] وعلمنا صلى الله عليه وسلم أن نستخير الله في جميع أمورنا، فلرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أَمْر تُحِبّهُ فيه ضررك وهلاكك، ففوِّض أمرك إلى الله في كل ما يَجري حولك، فكل شيء يسير وَفْقَ تقديره عز وجل وهو يعلم ونحن لا نعلم.

عندما ترون الدين يحارب، والفضيلة تنتهك، وصوت الباطل يعلوا فلا يصيبكم اليأس، فالله غالب على أمره، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، وإذا رأيتم أهل الباطل ينتصرون ويذلون المسلمين، فقولوا لله الأمر، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولكن له سبحانه حكمة، سيظهر وجهها بعد حين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين